

الماء والتوترات الاجتماعية في مدينة تونس خلال النصف الثاني من القرن 19

Water and social tensions in the city of Tunisia during the second half of the 19th century

محمد البشير رازقي*

المعهد العالي للعلوم الإنسانية (جامعة جندوبة. تونس)

البريد الإلكتروني: Rezgui.medd@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/02/01 تاريخ القبول: 2024/09/26

● الملخص:

عايشت مدينة تونس أزمات عديدة خلال القرن 19 منها الاقتصادي والسياسي والديمقراطي إلخ. وقد نتج عن ذلك بروز أشكال متنوعة من التوترات سواء كحركات اجتماعية أو تصاعد وتيرة الجريمة. سوف نسعى من خلال هذا البحث إلى تبين دور الماء في إبراز طبيعة هذه التوترات عبر دراسة أوقات وأسباب انقطاعه ودراسة أشكال توظيف الماء في الجرائم وعلاقة الماء بالتوترات المجهرية الاجتماعية خاصة حوادث الحياة اليومية. اعتمدنا في هذا البحث على الوثائق الأمنية المحفوظة بالأرشيف الوطني التونسي خلال الفترة الرابطة بين سنتي 1860 و 1881. وقد أبرزت لنا المدونة المصدرة علاقة عضوية بين توترات الحياة اليومية والماء (الآبار، المواجل، الفسقيات...). فقد تعددت أسباب انقطاعه مما فاقم الأزمة الاجتماعية لسكان المدينة، كما ارتبط عدد كبير من الجرائم بالماء سواء للتخلص من الجثث أو للتملص من الجريمة وإخفاء معالها. وقد وظفنا في هذا البحث منهج الميكروستوريا، أي التاريخ المجهرى، حيث تمكّنا دراسة تفاصيل اجتماعية دقيقة من تبين عمق الأزمة وتشعبها وامتداداتها الاجتماعية والغذائية والنفسية والسلوكية.

كلمات مفتاحية: الماء، التوترات، القرن 19، مدينة تونس، الجريمة

Abstract:

The city of Tunisia experienced many crises during the 19th century, including economic, political, demographic, etc. This has resulted in the emergence of various forms of tensions, whether social movements or the escalation of crime. Through this research, we will seek to clarify the role of water in highlighting the nature of these tensions by studying the times and reasons for its interruption, studying the forms of water being used in crimes, and the relationship of water to micro-social tensions, especially the incidents of daily life. In this research, we relied on security documents preserved in the Tunisian National Archives during the period between 1860 and 1881. The documents showed us an organic relationship between the tensions of daily life and water, as a large number of crimes were linked to water, whether to dispose of bodies or to evade the crime and hide its dependents. In this research, we have employed the microstory approach, that is, microscopic history, as studying precise social details enables us to reveal the depth and ramifications of the crisis and its social, nutritional, psychological, and behavioral extensions.

Keywords:Water, tensions, 19th century, Tunis, crime

● مقدمة:

عايشت مدينة تونس أزومات عديدة خلال القرن 19 منها الاقتصادي والسياسي والديمقراطي إلخ. وقد نتج عن ذلك بروز أشكال متنوّعة من التوتّرات سواء كحركات اجتماعيّة أو تصاعد وتيرة الجريمة. سوف نسعى من خلال هذا البحث إلى تبين دور الماء في إبراز طبيعة هذه التوتّرات عبر دراسة أوقات وأسباب انقطاعه ودراسة أشكال توظيف الماء في الجرائم وعلاقة الماء بالتوتّرات المجهرية الاجتماعية خاصّة حوادث الحياة اليومية.

اعتمدنا في هذا البحث على الوثائق الأمتية المحفوظة بالأرشيف الوطني التونسي خلال الفترة الرابطة بين سنتي 1860 و 1881. وقد أبرزت لنا المدونة المصدرية علاقة عضوية بين توتّرات الحياة اليومية والماء (الآبار، العيون، المواجل، الفسقيّات...). فقد تعدّدت أسباب انقطاعه مما فاقم الأزمة الاجتماعية لسكان المدينة، كما ارتبط عدد كبير من الجرائم بالماء سواء للتخلّص من الجثث أو للتملّص من الجريمة وإخفاء معالها. وقد وظّفنا في هذا البحث منهج الميكروستوريا، أي التاريخ المجهرى، حيث تمكّنا دراسة تفاصيل اجتماعية دقيقة من تبين عمق الأزمة وتشعبها وامتداداتها الاجتماعية والغذائية والنفسية والسلوكية.

قسّمنا هذا المقال إلى عنصر أول وهو: الماء وميكرو توتّرات الحياة اليومية بمدينة تونس. وثانيا: الماء والقتل والتخلّص الناجع من أدلة الجريمة.

1. الماء وميكرو توتّرات الحياة اليومية في مدينة تونس

مثّلت المياه دائما مصدر قلق وتوتّر ومنبع للتوتّرات الاجتماعية¹. بين المؤرّخ الأمريكي لورانس لي Lawrence B. Lee أهميّة اعتماد الموارد المائية كمصدر أساسي للتأريخ وتبين منابع التّفوذ والقوة الاجتماعية². دعى المؤرّخ مارتين رويس Martin Reuss هذا الرأى مبينا تموضع المياه ضمن لبّ رحي مجمل رهانات الفاعلين، وهذا ما حاولت الرّابطة الدولية لتاريخ المياه (IWHA) التأكيد عليه وفي نفس الوقت التركيز على خطره حاضرا ومستقبلا استنادا للماضي وحكمه³.

ترامن النقص في الغذاء في مراحل تاريخية عديدة بندرة المياه⁴، وتسبّب ذلك في توتّرات محلية وعالمية عديدة سواء من أجل الاحتكار أو للنفاذ والانتفاع⁵. وقد ارتبطت المياه بأنواع عديدة من الجرائم، وقد انتبهنا في هذا العمل إلى مسألة مهمّة وهي كثرة استخدام الماء في عمليّات القتل. اعتنت دراسات عديدة بالجرائم المائية مثل الاضرار بالطبيعة⁶، أو توظيف الماء خلال الجريمة مثل استخدام الثلج في عمليّات

¹ Ruth Morgan, "The anthropocene as hydro-social cycle: Histories of water and technology for the age of humans", *Icon*, Vol. 23 (2017), pp. 36-54

² Lawrence B. Lee, "Water Resource History: A New Field of Historiography?", *Pacific Historical Review*, Vol. 57, No. 4 (Nov., 1988), pp. 457-467

³ Martin Reuss, "Historians, Historical Analysis, and International Water Politics", *The Public Historian*, Vol. 26, No. 1 (Winter 2004), pp. 65-80

⁴ Amber Wutich and Alexandra Brewis, "Food, Water, and Scarcity", *Current Anthropology*, Vol. 55, No. 4 (August 2014), pp. 444-468

⁵ Allen Isaacman, Muchaparara Musemwa, "Water Security in Africa in the Age of Global Climate Change", *Daedalus*, Vol. 150, No. 4, Water Security in Africa in the Age of Global Climate Change (Fall 2021), pp. 7-26

⁶ Valérie Cabanes, « Reconnaître le crime d'écocide », *Revue Projet*, 2016/4 (N° 353), pages 70 à 73

التهریب خاصة تهريب الأعضاء. كما ارتبط الماء بالموت والعنف في عدد من الأعمال الأدبية مثل توظيف بلزاك Balzac لقيمة الموت غرقاً⁷.

تشابكت المياه مع ممارسات أنثروبولوجية عديدة على مستوى التمثيلات والطقوس والشعائر خاصة طقوس الانتقال وأهمها الموت⁸. يمثل الماء المصدر الأول للحياة ومنبعها، وهو أيضاً وسيلة ناجعة للقتل، وهذه الاشكالية التي أفرد لها الباحثان الأستراليان نورمال هابيل Norman Habel وبيتر ترودينغر Peter Trudinger كتاباً باعتبار الماء وسيلة للحياة وللموت أيضاً⁹. ارتبط الماء بتمثيلات متنوعة لدى حضارات عديدة فهو المصدر الأصلي للحياة، ومصدر شفاء وتطهير من الذنوب وأدران الحياة¹⁰. بالمقابل ترتبط المياه بالموت والأمطار الغزيرة والفيضانات وتدمير المحاصيل والمزارع والمنازل وقتل الناس¹¹. ولهذا مثل الماء طريفي نقيض بين مصدر للحياة وسبب حاسم للموت. ونظر للماء من عدة زوايا أخرى، فهو الماء المخصص للشرب، والموجه للسقي أو الماء المقدس المطهر، أو مصدر الدنس. فهو إذاً واحد ومتعد¹².

مثلت المياه محور أعمال أدبية عديدة خاصة سواء مع الأدب الدرامي والواقعي وخاصة الرومانسي. مثل عمل زولا Zola الأدبي لحظة تأسيسية للتعامل مع البئر باعتباره لحظة فاصلة بين الوجود والعدم والحياة والموت¹³. فقد وُصفت البئر أدبياً بالغموض والغربة، بل بالتناقض بين سطح راكد وقاع قاتل ومجهول ومظلم، فهو بطريقة أو بأخرى مشابه للنفس البشرية بين ظاهر وباطن، بين جسد وأعماق النفس. تضمّنت قيمة البئر مفارقات دقيقة تُذكر دائماً بالحياة نفسها وتوقع الإنسان فيها باعتباره فاعلاً اجتماعياً وهذا ما تناوله إميل زولا Emile Zola في أحد أهم رواياته La Fortune des Rougon حيث خصّ البئر بوصف دقيق بما يشتملها من صراع بين الحياة والموت والفقر والثروة والجاء والدناءة¹⁴. كما مثلت المياه محور دراسات أدبية عديدة وفلسفية، فقد خصّ غاستون باشلار Gaston Bachelard بماء بدراسة معمّقة حيث أبرز ارتباط قيمة الماء بتمثيلات إنسانية عديدة من الولادة إلى الموت والبعث، فهو رمز للموت والحياة والخير والشر والوضوح والغموض، باختصار فالماء هو مرآة للشخصية الإنسانية بتعقيداتها المختلفة¹⁵.

اهتمّ قانون الدولة بعلاقة الماء بالتوترات الاجتماعية وخاصة القتل، فقد ورد في الفصل 288 منه: "تعريف القتل العمد: "حقيقة العمد هو القصد للإتلاف بما يقتل مثله ممّا لا تُطبقه البنية الإنسانية من مُحدّد (أي سلاح حاد) كالسيف ونحوه، أو مُثقل كالرصاصة والعمود والحجر ونحوها، إمّا في الحين أو بالجراحات المفضية إلى الموت، أو مباشرة من غير آلة كالخنق والعضّ والرضى ونحوها ممّا يُقتل مثله، أو بالسبب كالإلقاء في نار أو في فرن محمي ويسدّ عليه أو في ماء حار لا يُطاق أو إلقاء في ماء يُغرق مثله، أو يُهدم عليه بيتاً أو يُسدّ عليه أو يمنع من الطعام والماء حتّى يموت، أو يُلقى رضيعاً في حرّ شمس حتّى يموت أو يربطه عريانا في ثلج أو يُجرّده على نحو سطح في يوم بارد

⁷ Lucette Besson, « L'eau de mort ou le thème de la noyade chez Balzac », *L'Année balzacienne*, 2003/1 (n° 4), pages 307 à 329

⁸ M. Christopher Pecheux, "In Defense of "Death by Water"", *Contemporary Literature*, Vol. 20, No. 3 (Summer, 1979), pp. 339-353

⁹ Norman Habel, *Water: A Matter of Life and Death*, ATF (Australia) Ltd, p.1-8

¹⁰ Rana P. B. Singh, "Water Symbolism and Sacred Landscape in Hinduism: A Study of Benares (Vārāṇasī)", *Erdkunde*, Vol. 48, H. 3 (Jul. - Sep., 1994), pp. 210-227

¹¹ Olga Porytskaya, « Rituels de l'eau en Ukraine et dans les pays slaves », *Ethnologie française*, 2004/2 (Vol. 34), pages 267 à 272

¹² Jacques Bethemont, « L'eau et le sacré », in: *Peurs et Plaisirs de l'eau*, Sous la direction de Bernard Barraqué, Pierre-Alain Roche, Hermann, 2011, pp.29-44

¹³ Ilias Yocaris, « Il faut se méfier de l'eau qui dort! La description du puits mitoyen dans La Fortune des Rougon », *Poétique*, 2016/2 (n° 180), pp.203-222

¹⁴ Emile Zola, *La Fortune des Rougon*, Le Livre de Poche, Paris, 2004

¹⁵ غاستون باشلار، الماء والأحلام: دراسة عن الخيال والمادة، ترجمة: علي نجيب إبراهيم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007

حتى يموت، أو يُطعمه سماً قاتلاً، أو يُلقى عليه حيّ، أو يُمسكه لقاتل من حيوان أو إنسان... فالحكم في جميع ذلك القصص إن تعمّده الفاعل ولا يسقط إلاّ بصلح أو عفو من صاحب حق¹⁶.

تضمّنت وثائق الضبطية وتقارير المجلس البلدي نزاعات عديدة محورها الماء، حيث تعدّدت الشكاوى من عدم سلامة الآبار والمواجل سواء عند كراء المنزل أو بسبب تسرب المياه للجيران. ورد في صفوة الاعتبار جملة مهمّة: "كلّ دار لا بدّ فيها من بئر وماجل ومطبخ وبيوت لحزن القوت وأدواته. ولا بدّ أن يكون خارجها مخزن للدواب"¹⁷. يمثّل وجود بئر سليم من العيوب بالمنزل أهمّ امتيازات هذا المنزل¹⁸، ويتمّ تنظيفه و"جهره" بصفة دورية وتخليصه من "الطفل". في أحد الوثائق نجد "امرأة تجهر في بئر وتبزع في ماء بالطفل"¹⁹. وعادة ما يتواجد في كلّ منزل بئر، حيث "لا تخلو دار من بئر"²⁰، وأحياناً نجد منزلان يشتركان في بئر واحد، ففي أحد الوثائق "اشتكى بن صالح... بحسن... لهما بئر شركه"²¹، و"البئر يريد دلوا" و"الدلو يريد حبلاً" و"الحبل من وبر"²². وعادة أن يُبنى بالمنزل "ماجل" وهو "حوض كبير يجمع فيه الماء"²³ لجمع مياه الأمطار²⁴، وفي بعض الدّور نجد البئر والماجل معاً. ويتمّ تنظيف الماجل بصفة دورية، حيث نجد بأحد المنازل "خدّام إلى ماجل ينقض فيه"²⁵. وفي الصيّف يتمّ اخلاء الماجل من الماء وتنظيفه في انتظار فصلي الخريف والشتاء حيث "العادة الجارية في خلّو الماجل من الماء في وقت الصيّف"²⁶.

كما وُظف الماء في تشكّلات أخرى للتوتّر. فقد استغلّ عدد من المساجين الآبار وقنوات التصريف للهروب من سجن الضبطية. ورد في أحد التقارير الأمنية بعد تمكّن عدد من المساجين من الفرار أنّهم: "مسكوا حبل البئر وهبطا معه، فوجدا حبل آخر هابط في البئر من دار أخرى طلّعا فيه كون البئر مشترك بين زوج ديار المذكورة، وفاصل بين الزوج ديار ياجور"²⁷. استغلّ المساجين في هذه الحالة طبيعة هندسة الآبار المتصلة ببعضها على مستوى مجاري المياه. تضمّنت تقارير أخرى أنواعاً من الآبار تتميّز بفتحتين في مكانين مختلفين، وهذا العامل استغلّ للهروب أيضاً، كحالة رجل هرب من سجن قشلة سوق الوزر حيث "نزل إلى البئر ثمّ خرج من فمه الآخر الذي بالمسجد الملاصق إلى المذكور"²⁸. كما نجح بعض المساجين في الهروب عبر شبكات المجاري المائية، مثل حالة رجل فرّ من السجن "بكيفية أنّه نزل إلى

¹⁶ الأرشيف الوطني التونسي، الكتاب عدد 450

¹⁷ محمد بريم الخامس، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق: علي الشنّوبي/ رياض المرزوقي، بيت الحكمة، قرطاج، 1999، الجزء 2، ص. 709-712

- A. De Flaux, *La régence de Tunis au dix-neuvième siècle*, Paris, Challamel aine, 1865, p. 35

¹⁸ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9. عدد الوثيقة 69086

¹⁹ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9. عدد الوثيقة 69026

²⁰ أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، 2004، ص. الجزء الرابع، ص. 262

²¹ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9. عدد الوثيقة 70507

²² هانس شتومه، أشعار وأغاني تونسية من القرن التاسع عشر، ترجمة: محمود كيبوي، دار الوراق للنشر، بيروت، 2015، ص. 65

²³ رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، الدار العربية للموسوعات، لبنان، 2011، الجزء الأول، ص. 87

²⁴ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9. عدد الوثيقة 70028

²⁵ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 9. عدد الوثيقة 70279

²⁶ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 121. الملف عدد 423. عدد الوثيقة 1701

²⁷ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 13. عدد الوثيقة 71036

²⁸ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 13. عدد الوثيقة 71333

المرحاض واستمرّ معه، وكان الفاصل بين المرحاض ومخزن ملاصقا له جدارا من آجر ثقبه بيده وأزال منه أجورات وخرج من ذلك الثقب إلى المخزن، ثم خلع باب المخزن وخرج إلى حيث شاء"²⁹.

بيّنت لنا المدوّنة المصدرية جوانب أخرى لعلاقة الماء بالتوتّر، فقد لاحظنا ارتباطا بين انقطاع الماء في مدينة تونس خلال النصف الثاني من القرن 19 وندرة الخبز أو انعدام وجوده³⁰. ورد في أحد الوثائق أنّه "في هاته المدّة ما يتوجّه الماء بسبابل الحاضرة إلا وقت الشروق إلى باقي ساعتين للزوال ينقطع بالمرة، وفي هاته المدّة القصيرة ليست كلّ السبابل بهم الماء، بل بعضهم به شيء قليل وبعضهم معدوم بالمرة...احتاجت السكّان للماء ووقع التشكّي...غالب الاثّاكن معدومة من الماء، ومن كان به شيء فهو أجاج"³¹. وأيضا "الماء عزّ وجوده بسبابل البلاد...لا يخفّاكم اجتياحه لا سيما في هذا وقت الصيف" "نخاطب المجلس البلدي...يؤكد عليه في تعجيل إصلاح ساقية جفّار"³². و"المكلّفون بحفظ ماء زغوان عرضوا أنّ ماء ساقية زغوان وجفّار نقص منه أكثر من الثلث...صدر الإذن...في منع العائمة من تضييع ماء السبابل...أكثر الماء القادم للحاضرة يسقون به السواني بالحرايرية ومّوبة وغيره"³³.

وتتفاهم الأزمة زمن التوتّر مع ندرة مادّة الخبز، فقد ورد في أحد التقارير الأمينية خلال الفترة قيد الدّرس أنّه "لم يوجد الخبز بالحاضرة وقد امتنعت الصنّاعية من خدمة الخبز لارتفاع سعر القمح"³⁴. ولهذا نلاحظ علاقة عضوية بين انقطاع الماء أو ندرته والظروف الأمنية³⁵، حيث نجد تقرير بتاريخ 19 شوال 1298 (14 سبتمبر 1881)، أي بعد مدّة قصيرة من انتصاب الحماية الفرنسيّة بتونس، أنّ "مهندس ماء زغوان أخبرنا... أنّ الماء مقطوع عن الحاضرة وأنّ الخزنة بها شيء قليل لا يكفي البلاد...الناس اطلب الماء من بعضها البعض...السقاية تجول بالبلاد"³⁶، وبالتوازي مع انقطاع الماء وبعد خمسة أيّام من كتابة هذا التقرير تضمّن تقرير أمينيّ معلومات عن كثرة قطع الطريق في الظهير الريفي لمدينة تونس حيث "نكاثر قطع الطريق عن القادمين للحاضرة"، والأماكن التي "وقع فيها السلب...قرب مرناق...قرب المنيهله...سبخة السيجومي...قنطرة باب الخضرا"، أي عزلت الحاضرة من كلّ جهاتها عن ظهيرها (24 شوال 1298/19 سبتمبر 1881)³⁷.

أحاطت توتّرات اجتماعية أخرى بتيمة الماء، فقد مثّلت الآبار والعيون أماكن مواعدة واجتماع مثالية بعيدة عن الأعين ولكن يمكن أن تتحوّل إلى نقمة بالنسبة للمرأة مثل حالة خديجة بنت علي العجمي التي اعتدى عليها محمد بن عبد الله بن حيران لما "ذهبت لترد من عين قرب برج جهم، فعمد إليها...وكثّفها وغصبها...وأزال بكارها"³⁸. وفي إطار هذه العلاقات الحميمة يمكن أن تتعرّض المرأة للعنف من طرف أحد أفراد عائلتها مثل حالة رجل قتل ابنته "بسبب وجدانه لها مع رجل تحت كاف حيث ذهبت ترد (تملئ الماء) مع النساء، فلحق فلم يجدها فبحث عنها فوجدها مع رجل تحت الكاف على حالة الرّثا"³⁹.

²⁹ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 14. عدد الوثيقة 71474

³⁰ Alfonse Dilhan, *Histoire abrégée de la régence de Tunis*, Paris, Imprimerie Balitout, Questroy et Ce, 1866, p.253- 254

- Philippe Daumas, *Quatre ans à Tunis*, Alger, Tissier, 1857, p.56

³¹ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 18. عدد الوثيقة 72502

³² السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 19. عدد الوثيقة 72815 (ربيع الأول 1287)

³³ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 23. عدد الوثيقة 73916 (صفر 1293)

³⁴ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 21. عدد الوثيقة 73360

³⁵ محمد استيتو، "الماء والحرب في تاريخ المغرب: أية علاقة"، *الماء في تاريخ المغرب*، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة الحسن الثاني، 1999، ص. 177- 190

³⁶ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 30. عدد الوثيقة 75763- 75764

³⁷ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 30. عدد الوثيقة 75766

³⁸ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 120. الملف عدد 421. عدد الوثيقة 1148

³⁹ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 120. الملف عدد 421. عدد الوثيقة 1132

كما وقعت حوادث عديدة في محيط تواجد الماء مثل حالة سقوط طفل في أحد الآبار⁴⁰، وموت عجوز بسبب سقوطها في ماجل⁴¹. وماتت خادمة صغيرة في أحد المنازل إثر سقوطها في البئر⁴². وثُوِّقَ أحد الرجال ومهنته حفر الآبار "إذ هجم (سقط) عليه البير المذكور فمات بسبب ذلك"⁴³. ومات طفل صغير غرقا عندما كان يسبح مع أترابه في فسقية باب سيدي عبد السلام⁴⁴. وقد أقدم عدد من الناس على الانتحار في الآبار⁴⁵، مثل حالة العربي بن الحاج عمر المغربي الجواني⁴⁶، والرجل بوبكر بن حمد النفطي "مهتوع في عقله وبعد غروب أمس التاريخ عمد إلى بير السيّد عايشه المنوبيه نفعا الله ببركتها ورمى بنفسه بوسط البير وحين أدركته الناس لرفعه من البير وجدوه قد مات رحمه الله، ولما بلغني ذلك جلبناه للمارستان بعد إخراجه من البير المذكور وكُتب رسم معاينته على العادة وأعلمت عليّ جنابكم"⁴⁷. وانتحار خادمت المنازل بسبب سوء المعاملة، فقد ورد في أحد التقارير الأمنية أنّ "الشوشانه أعلاه (الشوشانه بحر الزين) ألقت نفسها بماجل المحترم الوجيه الآلاي أمين سي حسونه بن حمّوده بن عمّار وحين بلغني ذلك أرسلت طبيب وعدول وفسيل وعمّام لإخراج الشوشانه أعلاه. فوصلوا إلى الدار المذكوره وهدموا فمّ الماغل ونزل العمّام وأخرجها ميتة لا روح فيها. فتأمّل الطبيب وأجاب بأنّ سبب موتها من الغرق فسألوا العدول ربّ الدار المذكوره عن السبب في ذلك فذكر بأنّ وقت زوال أمس التاريخ كانت المذكوره طالعه بدروج علو الدار المذكوره وهي تغني فسمعتها ابنة ربّ الدار المذكور وقالت لها كيف تغني، سأقول إلى أمي تحكّ لك فمك بالفلفل حتّى لا تغني مرة أخرى. ثمّ بعد مدّة فتشوها فلم يجدونها، فصاروا يفتشوا فيها حتى ظهرت أنّها بالماجل. وبمقتضى ذلك كُتب رسم تسجيلها على العادة وأعلمت رفيع جنابكم"⁴⁸.

2. الماء والقتل والتخلص الناجع من أدلة الجريمة

يمثل الماء وسيلة موت/قتل ناجعة وخطيرة⁴⁹. تناول جون ميلتون John Milton في الفردوس المفقود أنواعا عديدة من الموت ومنها الموت بالماء⁵⁰. حيث يمثل جسد الضحية، في زمن ما قبل نشأة علم الجريمة، الدليل الأساسي على القتل وطريقته وزمانه والمسلك الأساسي لمعرفة القاتل. يجمع المحقق، عند العثور على الجثة، معلومات أساسية وهي: هل أنّ الجثة لرجل أو لامرأة، ما العمر، ما هي الملابس التي يرتديها، ما اسمه عندما عاش، مكان الإقامة واسم العائلة، ومن الذي، وفقا للشهادات ثمّ للشهود، يفترض أنه قتله. ثمّ يقوم الطبيب بالاطلاع على الجثة سعيا لمعرفة طريقة القتل والأداة والزمان⁵¹. ولهذا يمثل الجسد الدليل الأبرز على تفاصيل الجريمة، ويُعدّ التخلص منه أفضل وسيلة للتخلص من كل الأدلة والبراهين. ويبرز هنا الماء باعتباره يساهم في تحلل سريع للجثة حيث يُخفي ملامحها ويصعب التعرف

40 السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي. 9. عدد الوثيقة 70418

41 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 17، وثيقة 72375 (ربيع الأول 1283)

42 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 21، وثيقة 73303 (محرم 1289)

43 السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي. 30. عدد الوثيقة 75648

44 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 23، وثيقة 73932 (جمادى الثانية 1293)

45 السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 121. الملف عدد 423. الملف الفرعي. عدد الوثيقة 68091

46 السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي. 17. الوثيقة عدد 72273

47 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 23، وثيقة 73987 (جمادى الأولى 1294)

48 الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 22، وثيقة 73718 (شوال 1290)

49 Laure Marmilloud, « Quand la mort s'impose par « vagues », à quoi nous expose-t-elle ? », *Jusqu'à la mort accompagner la vie*, 2021/1

(N° 144), pages 5 à 9

50 Christine Mohanty, "Death by Water in Milton", *Milton Quarterly*, Vol. 14, No. 4 (DECEMBER 1980), pp. 122-126

51 Michel Porret, « La preuve du corps », *Revue d'Histoire des Sciences Humaines*, 2010/1 (n° 22), pp.37-60

على طريقة قتلها وزمانه، أي التخلص من الأركان الأساسية للجريمة وهي الزمان والأداة/الطريقة وهوية المقتول، وعندما يكون مكان الماء بعيدا يستفيد المجرم أيضا من إبعاد المقتول عن مسرح الجريمة، مما يصعب أكثر التعرف على القاتل. إذا لم يعتمد القتل على الماء اعتباطا، بل يمثل بالنسبة لهم الحل الأمثل في زمانه وسياقاته. يمثل وجود الجثة مركزا أساسيا للتعرف على القاتل⁵².

يجب أن تتوفر ثلاثة أركان لتحقيق فعل الجريمة، أولا الركن القانوني أي طريقة تعريف الجريمة، حيث لا توجد جريمة لا يعاقب عليها القانون. ثانيا الركن المادي وهي أن تتحقق الجريمة بفعل صادر عن فاعل. وثالثا الركن المعنوي وهي أن تكون الجريمة ناشئة عن نية مرتكبها أو عن خطأ ارتكبه وهو عالم بأفعاله⁵³. وهنا تبرز مرة أخرى نجاعة التخلص من الجثة في الماء، فذلك يساعد على عدم تحقق الركن الثاني والثالث من تعريف فعل الجريمة، من خلال إخفاء الجثة أو تشويهها ومنع التعرف عليها هذا إن لم تتحلل تماما، وبالتالي عدم العثور على متهم. بدون جثة لا وجود لقاتل ولو كثرت الشبهات والشكوك. ولهذا شغلت الجرائم المرتكبة في الماء أو باستخدام الماء بال أجهزة الدولة لما يتوفر عليه الماء من خصائص مساعدة على إعدام الأدلة الجنائية. وقد صاحب هذا الهاجس الفاعلين الاجتماعيين المعاصرين حيث أقدمت في السنوات الأخيرة بعض الأجهزة الأمنية على تأسيس إدارات وفرق تحت مسمى "مسرح الجريمة تحت الماء"⁵⁴. والسبب في ذلك أن مسرح الجريمة في البرّ سهل التعامل معه فهو موقع ثابت أولا ومكشوف ولا يتعرض لمواد تساعد في تآكل وتحلل سريع للجثة أو لبقية الأدلة الجنائية. عكس الماء، فالمكان عادة ما يتميز بالحركة والجريان وهو يساعد على تغيير خصائص الأدلة وتحللها أو انعدامها تماما سواء بسبب تحوّلها من مكانها بسبب تحرك الماء أو بسبب ما يشتمل عليه الوسط المائي من كائنات حيّة (الأسماك مثلا).

بقي خبراء علم الجريمة يتوجّسون من الجرائم المائية طويلا، وقد بيّنت دراسة علمية صدرت سنة 2023 أنّ علماء الجريمة كانوا يعتقدون إلى حدود زمن صدور البحث أنّ الأدلة الجنائية المعمورة تحت سطح الماء تختفي بعد سبعة أيام على الأكثر. ولكت تبين أنّ يمكن للأدلة (خاصة الألياف) يمكن أن تبقى صالحة للمعينة لعدّة أسابيع⁵⁵. وقد شغلت أيضا كل هذه المحاذير مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة (UNODC)⁵⁶.

تبين لنا من خلال عملنا حول حوادث القتل في مدينة تونس خلال النصف الثاني من القرن 19 أنّ البحر وُظفت في أكثر من 50 جريمة قتل سواء من أجل القتل نفسه أو لتغيير ملامح الجثة والتخلص من معالم الجريمة⁵⁷. وُجد رجل غريب ميّتا في أحد الآبار خارج مدينة تونس مطعوناً ومنكّل بجثته (إزالة الخصيتين)⁵⁸. كما وُجد رجل مجهول الهوية مقتولا بعد أن ضرب بدبّوس وخنق، أُغرق في بحر⁵⁹، وآخر "ذبح ثم رمي في بحر"، وجدوه ملفوف "بوزره"⁶⁰. وعُثر على امرأة مقتولة في بحر "رأسها منكسرا ولم يبق منه إلا ذقنها"⁶¹. وعُثر على قاسم

⁵² Astrid Akopian, « Le cadavre accusateur dans le procès du XIIIe au XVIIIe siècle en Occident : de la preuve révélée à la preuve raisonnée », Droit et cultures [En ligne], 82 | 2021/2, mis en ligne le 12 juillet 2022, consulté le 02 novembre 2023. URL : <http://journals.openedition.org/droitcultures/7297> ; DOI : <https://doi.org/10.4000/droitcultures.7297>

⁵³ Alain Bauer, Émile Pérez, *Les 100 mots de la police et du crime*, Presses Universitaires de France, Collection : Que sais-je ?, Paris, 2009, p.97-122

⁵⁴ <https://www.albayan.ae/across-the-uae/our-homes/2018-04-28-1.3249862> (04- 11- 2023. 2:34 PM)

⁵⁵ <https://www.aljazeera.net/science/2023/10/22/%D8%AF%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D8%A9-%D8%A3%D8%AF%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%B1%D8%B9%D9%8A-%D8%AA%D8%A8%D9%82%D9%89-%D8%AA%D8%AD%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A7%D8%A1> ((04- 11- 2023. 2:40 PM)

⁵⁶ مسرح الجريمة والأدلة المادية: توعية الموظفين غير المتخصصين في التحليل الجنائي، مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة، فيينا، 2009

⁵⁷ محمد البشير رازقي، الجريمة زمن الأزمة: جهاز شرطة مدينة تونس وجرائم القتل (1860-1881)، دار المسيرة، تونس، 2023

⁵⁸ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 33، وثيقة 76615

⁵⁹ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 18، وثيقة 72670

⁶⁰ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 20. عدد الوثيقة 73161

⁶¹ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 18. عدد الوثيقة 72847

بن حسن الشرباجي حانبه ترك ميّتا ببئر "مخنوقا وموثوقا من يديه إلى الورا" ⁶² وذلك لكي يسهل إغراقه مع عدم تمكّنه من استخدام يده عند السباحة.

كما وُظف البئر نفسه للقتل ⁶³، حيث تُرمى الجثة في بئر وتُثقل الجثة بالحجارة لكي لا تطفو على سطح الماء، وُجد رجل "ملقى ميّتا ببئر (كذا: بئر)...نصل جلده من عظمه، وهو بوسط شبكة بطرفي سفساريه حجرتين...ملفوف في خرقة، وأعلا الخرقه المذكورة جانبا من سفساريه محرقا، وما بين ذلك من الشقّ الأيمن من أسفل الصدر حجارة...ومزال جميع جلد جسمه بالكليّة...وإنّ إزالة الجلد المذكور من جسده من كثرة المدة هناك تقرب من نحو شهر فارط" ⁶⁴. ويتنغي القاتل من تثقيل الجثة في الماء إلى تركها أطول مدة ممكنة لكي تفقد الجثة هويّتها وتحلّل ويصعب على المحقّق معرفة الضحيّة وبالتالي معرفة سبب القتل والقاتل وزمان القتل. يعتمد القاتل عند إخفاء الجثة أو دفنها إلى تغطيتها بمادّة الجير ثمّ تدفن لمنع الرائحة سواء عن الإنسان أو الكلاب. ⁶⁵ واستُخدمت مجموعة من التقنيات للتعامل مع الجثة، فإن كان المعتدي يريد أن تُكتشف بسرعة فهو يتركها فوق الماء، وإن كان يريد إخفاءها تماما فهو يحاول قدر الإمكان إبقاء الجثة تحت الماء، نجد "انسان ميّت ملقى ببئر خارج باب الخضرا...وهو عريّ اللباس مثقل بحجر...وجدوا برقبتة خنق ومضروبا على أذنه اليسرى وقد أفسده الماء لكونه ملقى به مدة عشرة أيّام أو أكثر ولم يعرفه أحد(هذا هو الهدف الأساسي من إبقاء الجثة مدة طويلة تحت الماء لكي تتحلّل ويصبح مجهول، وهو من آليات طمس معالم الجريمة)" ⁶⁶. كما سعى عدد من القتلة إلى نقل الجثة إلى مكان بعيد عن مكان القتل ومكان إقامة الضحيّة، حيث ترمى عادة في الوديان. ⁶⁷ وهذا ما تؤكّده وثيقة أخرى إذ نجد "أمين الغابة أخبرنا أنّه وجد رجلا قتيلا...إلا أنّه منقل (منقول) على ما يفهم...وله مدة لأنّه وقع فيه العدم في أكثر بدنه ولم يعقله (يعرفه) أحد (وهذا هو الهدف الأساسي من نقل الجثة وذلك لكي يتأخّر إيجادها)...ودفن في ذلك الحلّ الذي وجد فيه لإفساد بدنه" ⁶⁸. في هذه الحالة نصل إلى الهدف الأساسي للقاتل، حيث تتمّ دفن الجثة بدون التعرّف على صاحبها. وهذا ما تؤكّده قتل رجل ورّمي في بئر وهو مثقل بالحجارة وقد عُثر على جثّته شبه متحلّلة بعد أكثر من شهر ⁶⁹. كما وُجد رجل غريب مقتول في بئر بعد أن وُثق وحُقق، وقد عُثر عليه بعد مدة طويلة بعد أن تغيّر شكله وتعقّنت جثّته ⁷⁰. وقد عُثر على رجل غريب ميّتا في بئر بعد أن طُعن ونُكّل بجثّته ⁷¹. ولاحظنا من خلال المدوّنة المصدريّة أن الجثث الموجودة في الآبار عادة ما تكون مشوّهة ومنكّلة بما، وذلك بسبب بعد الآبار عن مناطق العمران وامتلاك القاتل للزمن والمكان المناسب للتصرّف بحريّة مع أجساد الضحايا. ولهذا ورد في تقرير أمّتي آخر أنّه عُثر على جثة غريب بعد 17 يوما من موته وسبب الموت هو الطعن ثمّ الإلقاء في البئر. ويتبيّن لنا أن رمي الجثث في الآبار يقلّل نسبة العثور عليها.

⁶² السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 17. عدد الوثيقة 72320

⁶³ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 18. عدد الوثيقة 72585

⁶⁴ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 23. عدد الوثيقة 73849 (1 رجب 1292 / 3 غشت 1875)

⁶⁵ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 23. رقم الوثيقة 73958 (3 جمادى الآخرة 1292 / 7 يوليو 1875)

⁶⁶ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 18. عدد الوثيقة 72670

⁶⁷ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 24. رقم الوثيقة 74096 (19 شعبان 1295 / 18 غشت 1878)

⁶⁸ السلسلة التاريخية. الصندوق عدد 55. الملف عدد 602. الملف الفرعي 25. رقم الوثيقة 74204 (5 شوال 1279 / 26 مارس 1863)

⁶⁹ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 23، وثيقة 73848.73849

⁷⁰ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 24، وثيقة 74134

⁷¹ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 24، وثيقة 74158

تمّ استهداف فئات اجتماعيّة معيّنة للقتل والرمي في البئر مثل العساكر⁷²، وخاصّة الغراء، والمثير هنا أنّ أغلب الجرائم التي وُظّف فيها البئر هي جرائم مجهولة الجاني⁷³. كما لاحظنا أنّ مجمل آبار كانت خارج مدينة تونس وبعيدة عن مناطق العمران. وقد استخدم البئر للتخلّص من أدوات الجريمة البئر والتخلّص من الأدلّة وأدوات الجريمة مثل الثياب والسكّين⁷⁴. كما مثّل البئر مكانا مناسباً للتخلّص من كل شيء غير مرغوب فيه مثل المولود خارج إطار الزواج، فقد علم شيخ باب سوقة بالعثور على مولود "في بير (كذا: بئر) خارج باب الحضرة فأرسل من طلّعه فوجدوه مزبوء (كذا: وُلد حديثاً) صغير كأنّه سقط (أي من جرّاء إجهاض) أرسل من غسّله ودفنه ولا يعلم من رماه ولا فقده أحد"⁷⁵.

وقد كان البئر مكاناً لعدد من حالات الموت المجهولة خاصّة في السّجن، مثل حالة رجل احتفظ به في السجن تحت التحقيق بعد اتّهامه باغتصاب طفل حيث "أتوا به سجن بسجن عسّة الحلفاوين وبالسجن ماجل، فاقتدوه بالليل لما أرادوا ملئ الماء فلم يوجد ووجدوا برنسه وسبّاطه فأخبروا به الرئيس فأذن بالبحث عنه. وفي صبيحة يوم الخميس ملئوا الماء فوجدوا به رايحة (كذا: رائحة) كبيره فاقتدوا الماجل فوجدوا به الرجل المذكور فأخبروا بذلك فأذن المجلس بإخراجه وبالتسجيل على عينه، فوجد أزرق"⁷⁶.

● خاتمة:

تبينّ لنا من خلال هذا البحث اشتمال الماء على جوانب أخرى عديدة إلى جانب ضروريّته الحيّاتيّة والوجوديّة وبرزت لنا استنتاجات مهمّة وهي:

- يحتوي الماء على أبعاد اجتماعية وأنثروبولوجية عديدة ومتنوّعة مرتبطة بالإنسان من الولادة إلى الممات ومتشابكة مع مجمل طقوس الانتقال.
- تزامنت الأزمات الغذائيّة والمعيشيّة في مدينة تونس مع انقطاع متواصل للماء، سواء كان هذا الأمر صدفة أو متعمّداً، لا يمكن لنا في جميع الأحوال إغفال الدور السياسيّ للماء سواء كعنصر تهدئة اجتماعيّة أو محرّك وقادح للتوتّرات والحركات الاجتماعيّة.
- نفس عنصر الماء الذي يعتمد عليه الانسان في حياته اليوميّة، يمكن استغلاله كوسيلة قتل ناجعة أو على الأقلّ مكان يُلجأ إليه لإخفاء معالم الجريمة وأسلحتها.
- يُعدّ القتل في الماء (خاصة الآبار) الطريقة الأكثر أماناً للقاتل خلال الفترة قيد الدّرس، أوّلاً بسبب بُعد الآبار عن مناطق العمران والأعين وثانياً للخصائص التي يتميّز بها الماء سواء لدوره في التحلّل السريع للجثّة وبالتالي الإخفاء السريع لملامح الضحيّة أو لمساهمة الفعّالة في تدمير وإعدام مجمل مسرح الجريمة بما في ذلك وسيلة وأداة وطريقة القتل والمقتول نفسه. تساهم كل هذه العوامل في إخفاء هويّة القاتل وحمل كلّ النازلة تجاه تصنيفها كجريمة قتل مجهولة الجاني. ويدلّنا هذا الأمر على ذكاء ملحوظ للقتلة وعلى الصعوبات الكبيرة التي واجهت مجلس الضبطيّة الحديث التأسيس (1860). يعتمد علم الجريمة على أربعة عناصر أساسيّة لتعريف

⁷² الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 16، وثيقة 72055

⁷³ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 20، وثيقة 73217

⁷⁴ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 10، وثيقة 70456 (شوال 1279)

⁷⁵ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 10، وثيقة 70418 (شعبان 1279)

⁷⁶ الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة التاريخية، صندوق 55، ملف 602، ملف فرعي 10، وثيقة 70284 (ربيع الأول 1279)

الجريمة والنفاذ إليها ومعرفة أركانها: مكان القتل، زمان القتل، هوية المقتول، وسيلة القتل. يُساهم الما في إعدام كل هذه العناصر الأربعة معا.